دراسة نقدية مقارنة لمبادىء العقلانية عند كانط وملاصدرا

منير بن عثمان1

ملخص المقال :

يمثل موضوع البحث دراسة مقارنة لمبادئ العقلانية فى مدرستين فلسفيتين مهمّتين ، تمثلان الوجهين البارزين للفلسفة الغربية والإسلامية، و هما المدرسة الحداثية الكانطية والمدرسة المتعالية الصدرائية، وتعتمد هذه الدراسه على بحث المعيار العقلانى للمدرستين، وأسلوب سير البحث الفلسفى فيهما، والتعرف علىالمراحل التى يطويها كل منهما لبلوغ معرفةالواقع، وهو مايقتضى استعراض المباحث الفلسفية المعتمدة لديهما، وصولا إلى الاسلوب والمنهج المعرفى لهما بشكل مقارن ونقدى.

يعرفنا البحث على أنّ كانط اتخذ موقفا مثاليا استعلائيا يرى أنّ الوجود الخارجى لا ينتقل إلى الذهن كما هو فى خارج النفس البشرية ، وإنّما الذهن يقوم بتحويله إلى ما يمكن أن تتحقق به المعرفة، ممّا يعنى عدم إنكاره للواقعية كما تنكرها المثالية الحديثة، وإن كان كانط لا يقبل الواقعية بالمعنى الذى يتبناه صدر المتالهين، حيث تكون الواقعية عنده عبارة عن إدراك الوجود الخارجى كما هو عليه فى الواقع ، وأنّ الإنسان على تماس بالواقعية بواسطة العلم الحضورى، مما يعنى إنتهاءها إلى اليقين، وبالتالى يكون المنهج الصدرائى رافضا للمثالية بذلك المعنى.

و الاسلوب المتبّع فى هذا البحث، هو الاسلوب التحقيقى النقدى المقارن للفلسفتين الحداثية والمتعالية، واتباع الاسلوب الذى اعتمده كل منهما فى بيان الحقيقة، وذلك من خلال النظر فى مصنفاتهما والمقالات التى تقترب من الموضوع وتتعلق بحيثياته، وبالإعتماد

١ أستاذ فى جامعة المصطفى العالمية، دكتراء فى الفلسفة الإسلامية

على المصادر العربية والفارسية ، نظرا لكثرة المصادر المتعرضة لكل من فلسفة كانط وصدر المتالهين فيهما.

الكلمات المفتاحية: العقلانية ، عقلانية الحداثة، العقلانية المتعالية، كانط، صدر المتألهين

مقدمة

البحث الذى بين أيدينا يدور حول عقلانية نظرية تتّخذ من العقل أساسا لكل معرفة ممكنة، باعتباره الجوهر الذى يحمل فى ذاته إمكانية التّعرف على الأشياء، سواء كان ذلک قبل المعرفة الحسيه أو بعدها، ومحاولة إيجاد حل للمشكلة الاساسية فى تحديد الشروط اللازم توفرها لكينونة العلم أمرا ممكنا، حيث يذهب البعض فى الغرب إلى اتهام النزعة الميتافيزيقة التقليدية ، ويرى بانها السبب الاساس للوقوع فى خطا تشخيص الواقع ، وعلى انها نتيجة حتمية لسوء استخدام العقل المحض الخالص، ما يعنى أنّ هناک استعمالا غير مطابق للعقل تسبب فى حصول خلط للمفاهيم وتحميل العقل مسؤولية ووظيفة ليست من شأنه ، ولذلک تمثل نقد كانط فى استعراض مختلف انواع الاحكام القبلية المسبقة عن كل تجربة، والتحليلية والتركيبية ، ليميز ماهو ممكن منها من الناحية العلمية وماهو مجرد تخيلات واوهام ميتافيزيقية، وهذا الامر هو الذى جعل فلسفة كانط توجد قدرا هائلا من الحيوية الفكرية والجدل الفلسفى ، وتؤثر فى مسار الفلسفة الحديثة، بما قدمته حول حدود كل معرفة إنسانية ممكنة.

وفى مقابل ذلک التوجه الكانطى المتمحض فى نقد العقل وكل ماهو ميتافيزيقى، نقف على توجه آخر، يقودنا إلى إمكانية المعرفة ونفوذها فى كل الوجود، بما فى ذلک المعرفة الميتافيزيقة، وهو ما ذهب إليه صدر المتألهين فى حكمته المتعالية ، من حيث تبنيه لفلسفة واقعية معقولة تكشف عن الواقع كشفا تاما، وترى بأن العملية المعرفية تحصل بإنفعال الذهن البشرى، عن طريق استفاضته من العالم العلوى و العقل الكلى الواهب للصور العلمية.

وعليه يكون موضوع بحثنا دائرا مدار عقلانية تميّزت فلسفة صاحبها النقدية بتحقيق إضافات عديدة للفلسفة الغربية الحديثة، وهوالفيلسوف إيمنويل كانط أحد أبرز الفلاسفة الغربيين ، وعقلانية صاغها صاحبها فى ما يعرف بفلسفة الحكمة المتعالية، وهو الفيلسوف الإسلامى والحكيم المتأله الآخوند صدرالدين الشيرازى صاحب الإبداعات الكبيرة والإبتكارات المتميزة، وفى هذا محاولة للتمييز بين العقلانية الحداثية والمتعالية على ضوء تمييز المنهجين المعرفيين لكل منها، وتتبع مسيرتيهما الفكرية، والبحث عن نقاط الالتقاء والافتراق فيهما، ومدى عقلانية كل منهما و اقترابها من الواقع، وأىّ الفلسفتين تمكنت من الكشف التام للواقع كشفا تاما، وأىّ مدى حققت فيه الاطمئنان بالمعرفة، وحفظت الإنسان من الوقوع فى الحيرة والاضطراب أمام تفسير الظواهر، خصوصا الميتافيزيقية منها والمعنوية ،مستهلين بالتحقيق فى المبادئ المعرفية للحكيمين.

مبادئ العقلانية عند كانط

يأتى الفيلسوف كانط ليخطو خطوة كبيرة ويقوم بعمل مهمّ على مستوى عالم الفلسفة ، وذلك بسبب النظر فى التوترات بين العقلانية والتجريبية التى أثارها هيوم فى شان الضرورة السببية والمعرفة القبلية، حيث كان تفسير هيوم للسببية منبّهها لكانط من غفلته والموقظ له من سباته، كما عبّر عن ذلك بنفسه وقال عنه أنه: " أول شيئ قطع سباتى الدوغمائى وأعطى بحوثى فى مجال النظرية التأملية اتجاها مختلفا كل الاختلاف (كانط، ١٩٦٧م ، ص٩)

تقسيم الاحكام

يعدّ تصنيف كانط للاحكام معيارا مهمّا فى عملية التحليل الفلسفى، حيث يميّز بين الاحكام القبلية والاحكام البعدية، وهذا التمييز قديم يعود إلى أيام أرسطو، وتقوم الاحكام البعدية على الملاحظة العادية وتتعامل مع الحقائق العارضة، مثل : الهرّة جالسة على الحصير، وأمّا الاحكام القبلية فتكون كلّية بحيث لا تقبل الاستثناء و ضرورية بحيث لا يمكن ان تتخلف، مثل الحقائق الريّاضية، ، و تنقسم الاحكام أيضا إلى تحليلية وتركيبية، والتحليلية

هى أحكام يكون المحمول فيها متضمنّا فى الموضوع، مثل: الأعزب غير متزوج، فمفهوم غير المتزوج يتضمنه الأعزب، وامّا التركيبية فهى تقدم لنا معرفة جوهرية وتتجاوزقضايا تحصيل الحاصل، مثل القول أنّ كل العزاب أقل طولا من مترونصف، فهذا حكم تركيبى لأنّ مفهوم العزوبية لايتضمن خاصية الطول أقل من متر ونصف.

ويمثل تقسيم الاحكام إلى هذين النوعين أبرز خصائص التجريبية، وهما متطابقان بحيث يمكن القول انّ كل الحقائق القبلية تحليلية، كما انهّا متناسبة مع المذهب التجريبى وما ذكره هيوم فى " العلاقات بين الأفكار" وكليّتها وضروريتها تنشأ من تحصيل الحاصل (مع بداهتها)، وايضا القضايا التركيبية وهى التى تُقدم معلومات حقيقية عن العالم، يحيث يُتوصل إليها بطور بعدى وبواسطة الملاحظة، إلاّ أنّها ليست ضرورية بل عارضة وممكنة (قد تكون حقيقة وقد تكون غير حقيقية).

إلاّ أنّ مبانى عقلانية كانط تختلف عن التجريبيين تماما، ذلک انّه يعتقد أنّ هناک احكاما تركيبية قبلية حقيقية، مما يعنى وجود قضايا تقدم لنا معلومات عن العالم وهى مع ذلک تتصف بالقبلية والكلّية والضرورة، ويستدل على ذلک بالقضايا الرياضية، وأهم مثال إعتمده كانط على الاحكام التركيبية القبلية، هو قانون السببية، وأنّ (لكل حادث سبب) وبتعبير كانط: " كل تغير يحدث وفقا لقانون الرابطة بين السبب والنتيجة (كانط، ١٩٦٧م ، ص ٢٣٢) فلا يعتبر كانط هذه القضية تحليلية، حيث مفهوم التغيّر لا يتضمن فكرة شيئ معلول ومسبب عن شيئ آخر، ولكنّها قضية حقيقية كليّة وضرورية يمكن للعقل الاستدلال عليها، فهدف كانط الأساس يتمثل فى تفسير، كيف تكون الأحكام التركيبية القبلية ممكنة؟

حدود العقل

ومن معايير العقلانية عنده، مسألة حدود العقل ، ووضع عنوان " نقد العقل المحض" لكتابه يبدو فى الوهلة الأولى انّه موقف مضاد للعقلانية، وفعلا بالنظر إلى الجزء الثانى من الكتاب وتحديدا فى (باب الجدل) كان يهدف كانط إلى وضع حدّ لادعاءات الميتافيزيقا

العقلانية، بتمكيننا من معرفة الواقع النهائى، ويرى انّ الموضوعات المعرفية الوحيدة التى تكون ممكنة هى الظواهر فقط، وهى موضوعات االعالم الطبيعى القابلة للملاحظة التجريبية، حيث يقول:" لاشيئ يعطى لنا حقا باستثناء الادراک الحسّى والتقدم التجريبى من هذا الادراک إلى الادراکات الاخرى (كانط، ١٩٦٧م، ص٥٦) إذن لا يمكن التوصل لحقيقة الشئ كما هو فى ذاته، ومحاولة تجاوز حدود التجربة تؤدى إلى الوقوع فى التناقض، وبهذه الطريقة يقاوم كانط المشروع العقلانى للبحث الخالص، ويرفض الانتقال إلى المعرفة المطلقة بدون توسط التجربة، حيث ينتقد هذه الادعاءات العقلانية، وهو القائل:" إنّ اليمامة الخفيفة، التى تشق الهواء بطيرانها الحرّ، قد تتصورأنّ الطيران مع ذلک سيكون أسهل فى فضاء فارغ (كانط، ١٩٦٧م، ص٨) فكل ما يمكن توقعه من هذا القبيل هو بلافائدة، لانّه لايوجد وصف ممكن للعالم، يجعلنا نستغنى عن التجربة.

ويقوم كانط بنقد التجريبية التى تقوم على صلاحية الانطباعات الحسيّة بحيث تكون مصدرا للمعرفة، ويقول باستحالة أن يكون الإحساس الصرّف مصدرا لفهم كل شيئ، مقتفيا خطى لابينتس فى أن القوة العقلية الفاعلة

يلزم استخداهما فى فهم جميع الإحساسات مهما كانت بسيطة وساذجة، وإنّما يقوم العقل عند تفسيره للعالم المحسوس بوضعه ضمن بنية محدودة، ويرى أنّ العالم مزود بما يطلق عليه مفهومات الفهم، وهى التى تكون دراسة العالم من دونها مجرد نوع من الادراک الحدسّى المباشر و يطلق عليه اسم " الحدس[١]، ولن تكون دراسة العالم بدون تلک المفهومات تجريبية، وهذا لايلغى دورالانطباعات الحسيّة وضرورتها فى وصف التجربة بذلک المضمون، كما يعتقده التجريبيون.

فالعقل يمكن ان يتعقل ذاته وحدها، كما يمكن تعقّله وهو يعقل المعطيات الحسيّة، فهو يمكن أن يكون عقلا فى ذاته بدون محتويات، لذلک يقرر كانط حقيقة أنّ :" الأفكار من

دون محتويات فارغة، والحدوس[1] من دون المفهومات عمياء (كانط، ١٩٦٧ م ص٧٥) مما يعنى وجود نوع من الحقيقة غائبة فى كل من الدراستين التجريبية والعقلانية للمعرفة، فالموقف التجريبى لجون لوک واتباعه جعل جميع مفهومات الفهم حسيّة قبلية للتجربة، والموقف العقلانى للبينتس واتباعه جعل جميع الظواهرعقلية، فكلاهما فى نظره خالف الصواب، لأنّه لايمكن للقدرات العقلية والحسيّة أن توفّر الاحكام الصادقة فى ما يتعلق بالأشياء إلاّ بنوع من الاتحاد فيما بينها (كانط، ١٩٦٧م ، ص ٣٢٧)

قبلية مفهومات المفاهيم (المقولات)

والمسألة المهمّة التى شكّلت محور البحث عند كانط تتمثل فى كيفية إثبات مصدر مفهومات الفهم وصحّة موضوعيتها الضرورية لتوليد وإنتاج المعرفة ، بعد التسليم بضرورة حيازة العقل على تلک المفهومات فى عملية دراسته للعالم، وقد أجاب كانط على هذه الإشكالية بأنّ مفهومات الفهم مستمدّة من بعض المقولات كما جاء فى ميتافيزيقا أرسطو، وأنّ مقولات الفهم هى من قبيل مقولتى الجوهر والعليّة، وهما مقولتان تمثلان أفكارا قبليّة، ممّا يعنى هنا إتباع كانط فى نظريته للمذهب العقلانى القديم القائل بوجود الافكار الفطرية بشكل مسبق فى الذهن، لكنّه على خلاف مع نظرة ديكارت الذى يرى استقلال هذه الأفكار الفطرية بالكلّيّة عن التجربة الحسيّة، فكانط يقول بانّ التجربة تقتضى تلک الافكار بشكل مسبق، وانّ المقولات التى من قبيل الجوهر والعليّة هى بمثابة الشروط الضرورية المسبقة للقدرة على دراسة العالم واختباره ، فيلزم ان تكون هناک مطابقة بين ما نفهمه وبين تلک المقولات (جون كوتنغهام، ١٩٩٧م، ص ١٠٠) وفى هذا الشأن يقول :

إنّ الصحة الموضوعية للمقولات بوصفها مفهومات قبلية تقوم على أنّه بمقدار ما يتعلق الامر بشكل الفكر، لا يمكن أن تصبح التجربة ممكنة إلاّ من خلالها، وهى ترتبط بالضرورة

١ الحدوس ومفرده حدس، (وهو سرعة الانتقال من المبادئ إلى المطالب ... والانتقال فيه ليس فيه حركة) القطب الروانددى فى كتابه(تحرير القواعد المنطقية)

والقبلية وبالتجربة، بسبب أنّه لايمكن التفكير فى أىّ موضوع من التجربة مهما كان إلا بها (كانط، ١٩٦٧م، ص ١٢٣)

ويعتقد البعض على أنه بالرغم من اشتهار كانط بتفسير ثورته المعرفية بما فسّربه كوبرنيقوس الحركات اليومية للشمس والافلاك، وذلك بافتراض أنّ المشاهد الأرضى هو الذى يدور، وليس الشمس والافلاك، فإنّه يقترح أن تكون مقاربته فى معرفة العالم، بالانطلاق من البنيّة التى يفترضها الفهم نفسه، لا الانطلاق من الخصائص المفترضة للأشياء فى ذاتها، إلاّ أنّ هناك من يرى انّ هيوم قد سبق إلى هذه الحركة الكوبرنيقية، وذلك بتحليله لمفهوم الضرورة السببية على مستوى ميل الذهن إلى فرض إحساساته الذاتية بالحتمية على الواقع، لاعلى مستوى العلاقة الحقيقة الموجودة بين الاشياء فى العالم، وهو ماجعل البعض يشكك فى صحة ماقام به كانط ،يقول جون كونتغهام :

هذه الحركة المقارنة باستراتيجية هيوم تثير شكوكا حاسمة فى صحة إجراء كانط، لأنّ حركة الاستراتيجية الهيومية عميقة الشك ومدمّرة: فلا وجود لضرورة حقيقية فى العالم ، ولاتوجد غير الترابطات العارضة الخالصة، وللذهن ميل آلى إلى نشر نفسه على الأشياء الخارجية، ولكن الشعور بالضرورة لا ينشأ إلاّ من تلقينات الذهن، والواقع ليس شيئا أبعد من ذلك (جون كوتنغهام، ١٩٩٧م، ص١٠١)

ضرورة الاحكام العليّة وشمولها وقبليتها

دافع كانط عن ثورته المعرفية بالاصرار على ضرورية الاحكام العليّة وشمولها وقبليتها، وحتى يوجه رأيه هذا، قام بإثبات أنّ للمقولات صحة موضوعية، وليست مجرد أوصاف ذاتية للفكر ، فقدّم جملة من الاستدلالات المعقدة، وهى التى يسميها " الاستنباط المفارق للمقولات"، وفى شأن السببية، يقوم بإثبات أنّ " كل التغيرات تحدث وفقا لقانون العلة والمعلول" وهى حقيقة ضرورية كليّة قبلية، حيث يميّز بين إدراك الأشياء وإدراك الظواهر، ويرى أنّه فى حالة إدراكنا لشيئ بواسطة الحسّ، فإنّ هذا الادراك يشتمل على تصورات

مرتبّة بطور من الترتيب، وهو قابل للقلب، ومثال ذلک عندما أدرک البيت فإننى أدرک السطح اولا ثم الجدران ثم الارضية، وهذا ادراک يمكن ان يحصل عندى بطورمعاكس، وألاحظ تلک الأجزاء بطريقة مقلوبة، ولكن إدراک الظواهر يختلف، لأنّها ليست قابلة للقلب، كرؤية السفينة تسير باتجاه معيّن فى البحر، فليس هناک إلاّ ترتيبا خاصا لعناصر هذه الظاهرة ، إلاّ أنّ الترتيب فى الظواهر ليس ذاتيا، لأنه ينتمى إلى الظواهر نفسها وليس لفهم الانسان ، ولذلک فإنّ فى إدراک الحوادث الحسيّة توجد قاعدة دائمية تجعل ترتيب الإدراكات الحسّية أمرا ضروريا (كانط ، ١٩٦٩م ، ،ص ٢٣٨)

حصيلة العقلانية عند كانط ونقدها

ومن هنا يمكن القول إنّ تعريف العقلانية عند كانط يكمن فى التاليف بين جهتين، جهة تقول بإمكانية المعرفة الموضوعية القبلية وخطأ الصور التجريبية المقتصرة على تلقى المعطيات بطورسلبى، وعدم سماحها بوجود ضرورات حقيقية تتجاوز الاستعدادات الذهنية الخالصة.

وجهة أخرى ترى أنّ الصحّة الموضوعية للمقولات لا تؤدى بنا إلى وقائع معقولة خالصة وراء عالم الظواهر الحسيّة، ولاتكون المقولات صحيحة إلاّ بما يمكن ان توضع الشروط التى ينبغى أن تسود إذا كان باستطاعتنا أن نعلم العالم كما نعلمه.

وبذلک تكون عقلانية تقوم على نفوذ المعرفة فى الأمور الزمانية والمكانية فقط، ولا تتعدى إلى ما وراء الطبيعة، ونتيجة ذلک أنّها عقلانية ترى فى المعرفة الميتافيزيقية كعلم أمر غير ممكن.

مبادئ عقلانية صدرالمتالهين

يتبّن مفهوم العقلانية المتعالية فى المسألة الأساسية المتمثلة فى ميزان تاثير العقل فى إثبات الواقع ومسائل المبدأ والمعاد وما بينهما من الأناسى والأكوان، والحدود القصوى التى

يمكن للعقل بلوغها لإثباتها، حيث نلاحظ إهتمام فلسفة صدر المتالهين بالمباحث العقلانية اهتماما بالغا، إبتدا بإقامة البراهين العقلية المحكمة لإثبات وجود الله، وصولا إلى إثبات المعاد الجسمانى.

محدودية العقل

يرى صدر المتألهين أنّ العقل البشرى يتصف بالمحدودية وبالنقص، ذلک أنّه لم يحظ من معرفة الواقع إلاّ قليلا، وأنّ السبيل لتكميل محدودية العقل ونقصه هو الاستعانة بطريق الشهود والسلوک، فالسالک فقط هو الشخص الذى بإمكانه بعد قطعه لمراحل وراء طور العقل ان يكتشف حقيقة الواقع، فالاستدلالات النظرية فى نظره ليس لها تلک القدرة الكافية على إدراک الحقائق، ولذلک يلزم أن يصل كل أنسان إلى مقدار من المعرفة للحقائق بمقدار سعته الوجودية، وذلک من جهة ان كل حقيقة هى تجلٍّ من تجلياته سبحانه وتعالى، مما يعنى ان الكشف والشهود يمثلان أفضل طريق لمعرفة الواقع، وسيأتى المزيد من بيانه.

الجزم واليقين

العقلانية المتعالية ذات نزعة يقينية جازمة، فهى تبتغى الوصول إلى القطع واليقين، فالعلم فى إطار هذه العقلانية يتمثل فى الإنكشاف التام للحقيقة، ويعتبر فيه أن يكون مساوياً للقطع واليقين، بمعنى أنّ القطع واليقين مأخوذٌ فى تعريف العلم. واليقين على ثلاثة مراتب علم اليقين وحق اليقين وعين اليقين، ويعتبر عين اليقين هو العلم النورانى الحقيقى، وكلما تنزل فى المراتب إبتعد عن الحقيقة بمقدار ما يتنزل، متاثرا فى ذلک بالمنهج العرفانى والاشراقى، ويتركزَ لبٌّ مدّعى هذه العقلانية الحتمية الجازمة فى كون معاييرها ثابتة وقطعية، وغير قابلة للإصلاح والتغيير، وأنّ ذات العقل فيها غير قابلة للنقد والإصلاح، كما انّها تتصف بالديمومة والثبات فلا تقبل التغيير، وقد لا تقبل أحيانا الشرح والتفسير، وحيث إنّ معاييرها قطعية ويقينية، فإنَه يمكن من خلالها الحصول على العلم القطعى الذى لا يقبل الخطا

والاشتباه و الترديد ، كما أنَّ معقولية شيئ ما، يرجع إلـى مـدى انسـجامه مـع هـذه المعـايير (الشيرازى، ١٩٨١ م ، ص١١؛ الشيرازى، ١٣٨١ هـ ش، ص٢٢١)

البساطة والواقعية

والقواعد النظرية التى ترتكز عليها أنَها تقوم على الواقعية البسـيطة فيمـا يتعلـق بعـالم الذهن والواقع، والتفسيرات التى تقوم عليها واضحة ومنزَّهة عن الظـن و التشـكيك،إنَها تقـوم على الواقعية التى ترى بأنّ أفكارنا لها منشأ عينيّاً، كما إنّ مضمونها يعبّر عـن حـاقّ الواقعيـة، وإنّ المرء فى مقام كسب المعرفة منفعل ومتأثر، وطبقاً لهذه العقلانية تكـون العلاقـة القائمـة بين الذهن والعين من علاقة (المطابقة) وإدراک الحقيقة فيه بمعنى الوصول إلى الحقيقة.

وفى إطار هذه الرؤية الصدرائية لا يُعْقَل التفكيک بين الظـاهرة (الشـىء فـى نفسـه أو المعلوم بالعرض) والظهور (الشىء بالنسبة لنـا أو المعلـوم بالـذات)، وكمـا تقـدَّم فـإن الواقعيـة البسيطة تفترض مقدّمات هامّة فى مجال طبيعة الواقعية أو الحقيقة، وعلى أساسها يـتِّمّ نفـى التعدُّدية الوجودية والمعرفية.

وبتقسيم صدر المتألهين العلم، إلى العلم الحصولى والحضورى، والعلم الحضـورى الـذى يمثل العلم بالشيئ عين وجود الشيئ وذاته، والحصولى الذى هو ان العلم بالشيئ مغاير لوجـود الشيئ، و مثال العلم الحضورى بالفرح والحزن والألم وغيرهـا، والواقـع فـى العلـم الحضـورى حاضر لدى العالم، ولا مجال للشک والترديد فيه، لأنّه لا وجود لواسطة بـين العـالم والمعلـوم، مما يعنى انّ لا مجال لاحتمال المطابقـة وعـدم المطابقـة، بـل هـو علـم يقينـى لا مجـال للاحتمال والشک فيه، كعلم النفس بذاتها وصفاتها وأفعالها، ونتيجة ذلک أنّ صـدر المتـألهين يقبل العلم اليقينى الذى لا يقبل الترديد بل هو عين الواقع.

ومن جهة أخرى قسّم العلم الحصولى إلى نظرى وبديهى والبديهى إلى الأوّلى والثانوى، والبديهى الأوّلى قضية تحصل بمجرد تصور الموضـوع والمحمـول والنسـبة بينهمـا، موجـب

للتصديق واليقين، واليقين دائمى وغير قابل للزوال ، ومثال هذا اليقين استحالة اجتماع النقيضين.

ويعتقد فى مجال العقل والتعقل أن النفس الانسانية مستعدة لأن تتجلى فيها كل الحقائق، وبالنظر إلى الموارد السابقة يتبيّن ان صدر المتألهين لا يعدّ العلم واليقين ممكنا فقط، بل العلم الحضورى والبديهات الاوليّة التى تمثل المصداق الكامل لليقين.

و الكلام عن المطابقة التى هى شرط آخر للمعرفة الحقيقية وعدم المطابقة، تناوله فى المعرفة الحصولية ، لأنّ العلم الحصولى (عبوديت عبد الرسول،٢٠١٠م، ج٣ص٢٦٦) صورة عن الشيئ فى الذهن والمطابقة وعدم المطابقة صورة الذهن للواقع، ولكن فى العلم الحضورى الواقع يكون حاضرا عند العالم ، وكما أن شرط العلم الحصولى هو الإنطباق فإن شرط العلم الحضورى هو الحضور، ولا تكون الصورة واسطة حتى يمكن طرح المطابقة وعدمها. وإنّما العلم عين المعلوم وعين الواقع ، والواقع نفسه لا يمثل صورة ذهنية، والنتيجة انّ المعرفة الحضورية هى معرفة حقيقية ، وليست مطابقة للواقع فقط، بل تمثل عين الواقع لها مصداق فى داخل ذات الانسان . مع انّ العلم الحصولى عند صدر المتالهين يرجع أساسا إلى العلم الحضورى.

محصلة العقلانية عند صدر المتألهين ونقدها

العقلانية عند صدر المتألهين بناء على ماذكرنا ، تمثل الالتزام بتعاليم العقل المؤيدَة بالمكاشفة العرفانية وأحكام الشريعة، وهى تتميز بالواقعية والبساطة وتقوم على اليقين على المستوى النظرى، والجزم بالوصول إلى الحقيقة ((صدر الدين الشيرازى،١٩٨١ م ، ص١١، صدر الدين الشيرازى ١٣٨١ هـ ش ،ص٢٢١) مما يجعلها تؤدّى إلى اليقين على المستوى النظرى، والصحّة على المستوى العملى، والمقدّمات و النتائج المترتّبة عليها تتمثل فى القول ببساطة الحقيقة، وأنَّها حقيقة مجرّدة، خالية من الإبهام والغموض والتعقيد. وذلك يعود

لاعتماد الحكمة المتعالية على الادراک الحضوری وأهميته الكبيرة فـی الكشـف عـن حقـائق الأشياء كشفا تاما.

هی عقلانية يكون فيها ذهن الإنسان فی مقام كسب المعرفة، يتصرَّف على نحوٍ متأثر ومنفعل، ويكون بمنزلة المرآة الصافية الخالية من أیّ لون او تقعـر أو تحدب، فليس للحقيقـة سوى ظهور واحد، وصورة واحدة، وتفسير واحد، وبناء على هذا الأساس، يكون إنكـار الحقيقـة أو اختلاف الناس بشأنها وتفسيرها ناشئ من الأهواء النفسية أو الانحرافات المعرفية دائما.

النتيجة

حاولت فلسفة كانط أن تكون ذات عقلانية منطقية نقدية، لا تتوقف عند الفهـم البسيط الساذج للحقائق، أوالمعرفة الجزئية للواقعيات، بل تحاول إطلاق العنـان للعقل، ليقوم بالتحقيق الكلی والبحث الواسع والمتعمق لفهـم حقيقـة الأشـياء والظواهر، عقلانية تتبع أسلوب فهوم شاملة وكلية للواقعية، يكـون العقـل فيهـا فاعلا فی مقام إدراک بناء أسلوب ومنهج معيّن لأجل معرفة الحقائق.

ولكن فيه ، أن العقل لا يمكن أن يكون فاعلا فقط، فی مجـال إدراک بنـاء الاسـلوب المعرفی ومنهجه، واستقلاله التام عن أية قوة أخرى فوقه، عـن المعرفـة، لأن ذلـک سـيؤدی بالأمر إلى أن يتوقف العقل فی بيان الحقيقة على ذاته فيلزم الدور وهو باطل، وهو مـا يـؤدی إلى انسداد باب العلم و تعطيل العقول عن المعرفة، فلزم ان يكون العقـل مـنفعلا وقـابلا عـن عقل اكمل منه فيه جميع الصور العلمية التـی يحتاجهـا، بانفعـال العقـول عـن العقـل الفعـال واستفاضتها منه ، وهو مانجد صدر المتألهين قد ذهب إليه واعتمده فی فلسفته المتعالية.

كما هذه العقلانية الحداثوية لكانط ترفض أی أسلوب يتّسم بالبساطة والسـهولة لبلـوغ الحقيقة، وتحاول ان تتجاوز بمعاييرها المعقدة العقلانية السـاذجة لفهـم الحقـائق، والحـال انّ الكثير من الحقائق الكونية لا تحتاج إلى كل هذا الـرفض للبسـاطة والسـهولة، فـالكثير منهـا

بديهى التصور والتصديق، يحصل العلم به بمجرد تصور طرفى القضية من الموضوع والمحمول، وهو من الامور التى اختلفت فيها عقلانية ملاصدرا مع عقلانية كانط، فقد شرعت الحكمة المتعالية بمبحث الوجود، مما يسَّهل المهمّة المعرفية لدى الانسان فى تعقل الواقعيات، باعتبار بداهة مفهوم الوجود وبساطته ، وكونه من أعرف الأشياء عند النفس .

كما انّ تحديد الاقتصار على دور العقل فى تفسير القضايا ومعرفة الواقع، يجعل من عقلانية كانط الاتصاف بعدم الشمول، وهذا يخرج بكانط عن سياق البحث الفلسفى الذى يشترط أخذ العموم والشمول، فاللسفة تحاول دائما الانتقال من المفاهيم الجزئية إلى الكلية ومن ضيق التقييد إلى رحابة الشمول والتعميم.

ولهذا القصور كان صدر المتالهين ملتفتا، ورغم ذلک لم يهمل المباحث العقلية بالكلّية، بل إبتدأ بإقامة البراهين العقلية المحكمّة لإثبات المسائل، وقام بتوظيف العقل ما وجد إلى ذلک سبيلا، و بمجرد بلوغه إلى تلک الحدود القصوى للعقل يُعرب عن قصوره، فيفتح باب المكاشفة والشهود، الامر الذى يعنى انّ عقلانية ملاصدرا لعلمها بمحدودية العقل البشرى ويقينها بنقصه الكبير، وأن العقل لا يؤتى من معرفة الواقع إلى القليل، وبذلک تكون الحكمة المتعالية قد مهدت السبيل لتكميل محدودية العقل ونقصه بالاستعانة بقوة الإدراک الشهودى ، فهى ترى انّ السالک فقط هو الشخص الذى بإمكانه بعد قطعه لمراحل وراء طور العقل ان يكتشف حقيقة الواقع، ويكفى فى صحة هذا الإدعاء مقدرة البعض على ذلک، وأفضل دليل على الإمكان الوقوع.

وعقلانية كانط التى ترى لزوم الاستفادة من القضايا وتقسيماتها فى توضيح ذاتها، حيث لا تحتاج إلى منهج لإثباتها، سواء فى حالة إثبات هذا المنهج المذكور، والحال أنّنا نلاحظها عقلانية تقوم على أساس القضايا ، وتستفيد من المنهج الاستدلالى الأرسطى، بل يقوم بنيانها على القضايا الضرورية التى لا تقبل الخدش، ومن هنا، فإنّ أصل وجود العقلانية المنطقية يكون مصحوبا بفئة من القضايا التى تاخذ شكلها من ذاتها بحيث لا يمكن أن يتخلف عن مفادها، ولا اشكال فى فطرية هذه القضايا المذكورة ومعقوليتها، مع أن إدعاء كانط هو ضرورة الابتعاد عن القول بانّ هذه القضايا تدعى لنفسها المعقولية، حتى يمكن لأى شخص الإدعاء باتّخاذها بديلا.

بينما تستفيد العقلانية المتعالية من القضايا وبالميعار البرهانى الارسطى، بلا تردد، غاية ما هنالک انّها تتجاوز المنهج الأرسطى إلى الاستعانة بالنقل الوحيانى والكشف العرفانى فى بعض الحالات التى يتوقف العقل فيها.

ولقد غفل كانط عن أرقى انواع الادراک وهو الادراک الحضورى لدى الانسان، وقال بأن معرفة حصول الشيئ غير ممكنة ـ كما ذكرنا ـ وصدر المتألهين يقبل ذلک ايضا، لكنه لا يمانع من حضوره لدى النفس بوجوده لا بماهيته، وحلّ صدر المتألهين هذه المسألة بالاستفادة من الادراک الحضورى، وبيّن رجوع العلم الحصولى إليه، وبذلک أبقى على انفتاح باب العلم وعدم اقتصار ذلک على المعرفة الحسيّة التجريبية، وبالتالى لا يقتصر الأمر على معرفة الظواهر الطبيعية، وإنّما يتجاوز معرفة الاشياء بحقائقها وذواتها، علما حضوريا، يكون فيه العلم والمعلوم واقعية واحدة، حيث يصدق العلم على واقعية سواء كانت تلک الواقعية ملاكا لكون الشيئ بنفسه عالما بنفسه، او كانت ملاكا لكون واقعية أخرى عالمة به، او ملاكا لكونه عالما بواقعية اخرى او ملاكا لكون واقعية اخرى عالمة بواقعية اخرى، فالمعيار فى العلم الحضورى أن يتّحد العلم بالمعلوم ويكونا شيئا واحدا.

وفى إطار هذه الرؤية الصدرائية لا يُعْقَل التفكيک بين الشىء فى نفسه أو المعلوم بالعرض والشىء بالنسبة لنا أو المعلوم بالذات، ولا فرق بين الظاهرة والظهور من حيث الإدراک. والعقل المدرک للنفس الإنسانية المستعدة لأن تتجلى فيها كل الحقائق،له القدرة على ذلک التفكيک،والمعلومات الحاضرة لديه بالعلم الحضورى والبديهيات الأولية تمثل المصداق الكامل لليقين الذى هو منتهى غاية المعرفة البشرية.

قائمة المصادر

١. الشيرازى، صدر الدين محمد بن إبـراهيم، ١٩٨١م، الحكمـة المتعاليـة فـى الأسـفار الأربعة العقلية، دار إحياء التراث العربى، بيروت،

٢. الشيرازى، صدر الدين محمد بن إبراهيم،١٣٨٠ هـ ش، الشواهد الربوبية فى المناهج السلوكية، مركز تحقيقات إسلامى،طهران.

٣. عبوديت، عبد الرسول، ٢٠١٠ م، النظام الفلسفى لمدرسة الحكمة المتعاليـة، مؤسسـه أموزشى وبؤوهشى امام خمينى، تعريب على عباس الموسوى طبعة ١، بيروت

۴. كانت، إيماتويل، ١٩٨٨م، نقد العقل الخـالص، مركـز الإنمـاء القومى،ترجمـة موسـى وهبة،الطبعة الأولى،بيروت

۵. كانط ،عمانوئيل، ١٩۶٧م، مقدمة لكـل ميتافيزيقـا مقبلـة ، ترجمـة نـازلى إسـماعيل حسين،دار الكاتب العربى، القاهرة

۶. كوتنغهام، جون،١٩٩٧ م، العقلانية فلسفة متجددة،ترجمـة محمـود منقـذ الهاشـمى، مركز الإنماء الحضارى،الطبعة الأولى، حلب